٢١ـ حَلَب

إذا هبطت شمال سورية، رأيت نفسك في سهل متسع خصب تتوسطه حلب، وتقتعد فيه مفارق طرق تتجه نحو شمال العراق وآسية الصغرى وديار الشام. لذلك كانت حلب دوماً، منذ أن أنشئت قبل نحو أربعة آلاف سنة، مدينة ثرية رخية لا تخيب أمل قاصد ولا تبخل على طالب. وقد تدخلت الأسطورة في تفسير اسمها، فقد روي أن ابراهيم كان «إذا اشتمل من الأرض المقدسة ينتهي الى هذا التل فيضع به اثقاله ويبث رعاياه إلى نهر الفرات والى الجبل الأسود. وكان مقامه بهذا التل يحبس فيه بعض الرعاة بما معهم من الأغنام والمعز والبقر. وكان الضعفاء إذا سمعوا بقدومه أتوه من كل وجه من بلاد الشمال فيجتمعون مع من اتبعه في الأرض المقدسة لينالوا من بره، فكان يأمر الرعاة بحلب ما معهم طرفي النهار ويأمر ولده وعبده باتخاذ الطعام. فإذا فرغ له منه أمر بحمله الى الطرق المختلفة بازاء التل ليتصدق به على الضعفاء والمساكين فينادى الضعفاء: ابراهيم حلب. ابراهيم حلب. فيبادرون إليه. وغلبت هذه اللفظة لطول الزمان على التل كما غلبت غيرها من الأسماء على ما هو مسمى به فصار علماً بالغلبة»[1].

وقد اختصت حلب بأمور كثيرة لا توجد في غيرها أو على الأقل لا يجاريها غيرها فيها تماماً. وقد اجمل الكتاب والمؤلفون ذلك فقالوا: «فمن ذلك حسن ترتيبها، واعتدال بقعتها، وعذوبة مائها، وطيب هوائها، وحسن خلق أهلها وخلقهم، وسلامة صدورهم من المكر والخديعة، وصفاء ألوانهم، وجودة أفكارهم، ودقة نظرهم في العلوم.

«قال لي شيخي: يا ولدي، إن أهل الديار المصرية أحسن بديهة من أهل حلب وأهل حلب أحسن رؤية منهم. واما صفاء قرايحهم واعتدال طبائعهم، ومحبتهم للغرباء، واعتقادهم مع انتقادهم، وذكاء زروعهم وجودة ثمارهم، ورصانة غلاتهم فأمر مشاهد بالعيان لا يدفعه إلا مكابر او أكمه لا يعرف القمر...

«ومما اختصت به ماء الورد النصيبي الذي يستخرج بالباب من اعمالها فإنه لا يوجد في الدنيا مثله بحيث لا يقاربه شيء مما يجلب إلى الديار المصرية من الشام ولا يدانيه، مع ان المجلوب من دمشق عند المصريين في غاية العظمة بحيث يصفه اطباؤهم للمرضى فيقولون ماء ورد شامي. وينبت في أرضها زهرة يسمونها القرنفل، طيبة الرائحة يستقطر ماؤها وهو زكي الرائحة ايضاً...

«ومما اختصت به الصابون الذي يجلب منها إلى ممالك الروم والعراق وديار بكر، وهو افخر الصابون، ويباع بحلب في اليوم الواحد منه ما لا يباع في غيرها في الاشهر. ومن خصائصها نفاق ما يجلب اليها من البضائع كالحرير والصوف واليزري والقماش العجمي وانواع الفرا من السمور والوشق والفنُك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر. والبضائع الهندية واجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الاجناس. فإنه قد يتفق أنه يباع فيها في يوم واحد ما لا يباع في غيرها في شهر. كل ذلك باطيب ثمن وارغبه. مثلاً اذا احضر اليها مائة حمل حرير فانه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه ولو حضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال لا تباع في شهر وعلى هذا فقِس»[٢].

عرفت حلب عصرين مزدهرين في تاريخها العربي الطويل. اما اولهما فكان عصر الحمدانيين في القرن الرابع (العاشر)، والثاني أيام الأتابكة والأيوبيين. زارها المقدسي في القرن الرابع (العاشر) فقال في وصفها: «وأما حلب فبلد نفيس خفيف حصين وفي أهلها ظرف ولهم يسار وعقول. مبنيّ بالحجارة عامر، في وسط البلد قلعة حصينة واسعة، فيها ماء وخزائن السلطان والجامع في البلد، شربهم من نهر قويق يدخل الى البلد الى دار سيف الدولة في شباك حديد. والقصبة ليست بكبيرة، الا ان بها مستقر السلطان، لها سبعة أبواب»[٣].

والحمدانيون كانوا أهل كرم وشجاعة، كما ان منهم الشعراء. وشعر أبي فراس الحمداني من رفيع الشعر. وقد أَسره الروم خمس سنوات فنظم شعراً كثيراً. من ذلك قصيدته التي منها:

اراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... اما للهوى نهي عليك ولا أمر
اسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ... ولا فرسي مهر ولا ربه غمر
ولكن اذا حمّ القضاء على امرئ ... فليس له برّ يقيه ولا بحر
يمنون ان خلوا ثيابي وانما ... علي ثياب من دمائهم حمر
وقائم سيفي فيهم اندق نصله ... واعقاب رمحي فيهم حطم الصدر
ونحن اناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين او القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن خطب الحسناء لم يغله مهر
اعز بني الدنيا واعلا ذوي العلا ... واكرم من فوق التراب ولا فخر

وبلدة كحلب بحاجة إلى قلعة تحميها وسور يدرأ عنها الأعداء. ويبدو أَن حكام حلب، في كل دور من أدوار تاريخها، كانوا حريصين على أن يعمروا القلعة والأسوار. فقد قال عنها المهلّبي من أهل القرن الخامس (الحادي عشر): «أما حلب فهي قصبة قنسرين العظيمة ومستقر السلطان. وهي مدينة عامرة آهلة عليها سور من حجر وفي

وسطها قلعة على تل. وتلك القلعة لا ترام. وعليها سور حصين. ويجلب من الكور والضياع ما يجمع من سائر الغلات النفيسة»[٤]. على ان القلعة بلغت درجة أكبر من المنعة في ايام الأتابكة والأيوبيين. فقد كان فيها، بالاضافة الى الأسوار والحصون، مصنع الخندق ودور كبيرة، منها، دار رضوان التي قال الرشيد عبد الرحمن بن النابلسي في وصفها:

دار حكت دارين في طيب ولا ... عطر بساحتها ولا عطار
رفعت سماء عمادها فكأنها ... قطب على فلك السعود يدار
وزهت رياض نقوشها فبنفسج ... غض وورد يانع وبهار
نور من الاصباغ مبتهج ولا ... نور وازهار ولا ازهار
ما اينعت فيها الصخور وأورقت ... الا وفيها من نداك بحار[٥]

وقال ابن العديم في تاريخه: «وكان بهذه القلعة جرس كالتنور العظيم معلق على برج من ابراجها الغربية، وكان الجرّاس يحركه ثلاث دفعات في الليل. دفعة في اوله لانقطاع الرجل عن السعي. وأخرى في وسطه للبديل. وأخرى في آخره للاعلام بالفجر»[٦].

وقد روى المؤرخون ان حلب في تلك الفترة كان فيها عشرون جامعاً تقام فيها صلاة الجمعة، اكبرها الذي جدد بناءه نور الدين زنكي «وقطع الاعمدة الصفر من بُعادين ونقل اليه عمد مسجد قنسرين ... فنقض [نور الدين] السوق واضافه الى الجامع»[٧]. وكان في الجامع صهريج كبير روى ابن العديم قصته قال: «كان بعض السلف من أهل حلب واعيانها متولياً على اوقاف الجامع بحلب فاتاه انسان لا يعرفه فطرق عليه الباب ليلاً ودفع اليه الف دينار وقال له: اصرفها في وجه برّ ومعروف. فاخذها وافتكر في وجه بر يصرف ذلك المال فيه. فوقع له أن يصرفه في عمارة مصنع يخزن فيه الماء من القناة فان منابيع حلب ماؤها مالح. وكان العدو يطرق مدينة حلب كثيراً فاذا قطع عنها ماء قناة حيلان تضرر أهلها ضرراً عظيماً. فرأى ان يعمل مصنعاً في صحن الجامع المذكور مدفوناً تحت أَرضه وان يوسعه بحيث يسع ماء كثيراً. فشرع في ذلك وحفر حفيرة عظيمة واسعة واشترى الحجارة والكلس وعقد المعلمون المصنع. وفرغ الذهب المحمول اليه ولم يتم المصنع. فضاق صدره وتقسم فكره في طريق يتوصل به الى اتمام هذا الخير. فطرق عليه الباب الطارق الأول ليلاً فخرج فوجد ذلك الانسان بعينه فدفع اليه الف دينار أخرى وقال له: اتم عملك بهذه. فاخذها وتم بها عمل ذلك المصنع، فجاء في غاية السعة والركانة واتقان العمل. وهو يأخذ معظم ما تحت صحن الجامع»[٨].

ولأبي بكر الصنوبري قصيدة مدح فيها حلب وذكر جامعها الكبير قال:

حلب بدر دجى انجمها الزهر قراها
حبذا جامعها الـ جامع للنفس تقاها
موطن يرسي ذوو البر لمرساه جباها
شهوات الطرف فيه فوق مـا كان اشتهاها
قبلة كرمها الله بنور وحبباها
ورآها ذهباً في لازورد من رآها
ولفوّارته ما لا تراه بسواها
قصعة ما عدت الكعب ولا الكعب عداها
ابداً تستقبل السحب بسحب من حشاها
فهي تسقي الغيث ان لم يسقها او إن سقاها
كنفتها قبة تضحك عنها كتفاها
قبة ابدع بانيها بِناها اذ بناها»[٩].

والى جانب الجامع نجد في حلب البيمارستان النوري الذي بناه نور الدين. وقد روى ابن الشحنة قصة بنائه قال: «يقال إن الملك العادل نور الدين تقدم الى الاطباء ان يختاروا من حلب اصح بقعة صحيحة الهواء لبناء البيمارستان بها فذبحوا خروفاً وقطعوه أربعة ارباع وعلقوها بارباع المدينة ليلاً. فلمّا اصبحوا وجدوا احسنها رائحة الربع الذي كان في هذا القطر فبنوا البيمارستان فيه. ووقف عليه قرى كثيرة».

وكان بين زوار حلب ابن جبير الرحالة المغربي الكبير (القرن السادس/الثاني عشر)، فأعجب بها وقال عنها: «واما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الاسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة أخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية. وكلها مسقف بالخشب فسكانها في ظلال وارفة. فكل سوق منها تقيد الابصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً. واما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً، مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها، ولو كان من المرائي الرياضية. وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شُرَف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها اجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم ... ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً ... وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة وأبوابها حديد. وهي من الوثاقة في غاية»[١٠].

وقال ابن فضل الله العمري: وحلب «تاهت بهم شرفاً على كيوان ثم جاءت الدولة الاتابكية فزادت فخاراً واتخذت لها من بروج السماء منطقة وسواراً ولم تزل على هذه

يشار اليها بالتعظيم. وتأبى أهلها في الفضل عليها لدمشق التسليم. حتى وطئها هولاكو بحوافر خيله وأقام عليها، مفرقاً في اقطار الشام بعوث سراياه وجنوده فهدمت اسوارها واخربت حواضرها فاصبحت يرثي لها الشامت ويبكي لها اللاهي. وهي على ما توالى عليها من المحن واطاف بها من نوب الايام مصر جامع ومبصر رائع وبلد راتع مبنية بالحجر الاصفر الذي لا يوجد في البلاد مثله. وهي أوسع الشام بلاداً واوطاها اكنافاً ولها المرج الفسيح والبر الممتد حاضره وباديته، وبها منازل عربان واتراك، وبها جند كثيف وامم من طوائف العرب والتركمان وبلادها متصلة بسيس والروم وديار بكر وبرية العراق وفي اعمالها وادي الباب»[١١].

وابن شداد يقول عن حلب: «على كل حال فانها اعظم البلاد جمالاً، وافخرها زينة وجلالا. مشهورة الفخار، عالية البنا والمنار. ظلها ضاف، وماؤها صاف، وسعدها واف، ووردها لعليل النفوس شاف. وأنوارها مشرقة، وأزهارها مونقة، واشجارها مثمرة مورقة. نشرها اضوع من نشر العبير، وبهجتها ابهج منظراً من الروض في الزمن النضير. خصيبة الاوراق. جامعة من اشتات الفضائل ما يعجز عنه الافاق. لم تزل منهلاً لكل وارد. وملجأ لكل قاصد. يستظل بظلها العفاة. ويقصد خيرها من كل الجهات. لم تر العيون اجمل من بهائها. ولا اطيب من هوائها. ولا احسن من بنائها. ولا اظرف من ابنائها. فلله درّ القائل حيث يقول حين حلّ بفنائها وشاهد ما يقصر عنه الوصف من محاسن ابنائها:

«حلب تفوق بمائها وهوائها ... وبنائها والزهو من ابنائها
نور الغزالة دون نور رحابها ... والشهب تقصر عن مدى شهبائها
طلعت نجوم النصر من ابراجها ... فبروجها تحكي بروج سمائها
والسور باطنه ففيه رحمة ... وعذاب ظاهره على اعدائها
بلد يظل به الغريب كأنه ... في اهله فاسمع جميل ثنائها»[١٢].

نهر حلب نهر صغير اسمه قويق، يجري في الشتاء والربيع، ويجف في الصيف والخريف. وقد استوحاه الشعراء كثيراً. فمن ذلك قول الصنوبري يصف هذا النهر:

قويق اذا شم ريح الشتاء ... اظهر تيهاً وكبراً عجيبا
وناسب دجلة والنيل والفرات ... بهاء وحسناً وطيبا
وان اقبل الصيف ابصرته ... ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا
اذا ما الضفادع نادينه ... قويق قويق ابى ان يجيبا[١٣]

ومما وصف به النهر قول ابن الخضر الحلبي:

ما بردى عندي ولا دجلة ... ولا مجاري النيل من مصر
احسن مرأى من قويق اذا ... اقبل في المد وفي الجزر

يا لهــفـاً منه على نغـبـةٍ تبـل منـي غـلـة الـصـدر(١٤)

ومتنزهات حلب كثيرة، عدد منها ابن الشحنة ما يزيد على عشرة ثم ختم ذلك بقوله: «ولو ذكرنا ما قيل في كل واحد من هذه المتنزهات من النظم والنثر لطال الكلام جداً. وقد اقتصرنا من ذكر محاسن حلب على بعض الغرض. ولم نرد ما لها علينا من الشكر المفترض. وناهيك ببلاد نباتها الشيح والقيصوم. وفتيت ظبائها اطيب من كثير من المشموم. ولم استوعب من ذلك غاية المنقول. فلا تلمني يا أخي فاني اقول:

«ولا غـرو ان كـثـرت ذكـر مـحـاسن لأول أرض مـسَّ جلـدي تـرابـهـا
وربع بـه كـان الـشـبـاب مـصـاحـبي فـزهـرة اعـمـار الرجـال شـبـابهـا»(١٥).

الهوامش

(١) ابن الشحنة، محب الدين: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩، ص ٢٦ـ٢٧.
(٢) نفس المكان، ص ٢٥٠ـ٢٥٤.
(٣) المقدسي، ص ١٥٥.
(٤) ابن الشحنة، ص ١٤٨ ـ١٤٩.
(٥) نفس المكان، ص ٥٢.
(٦) نفس المكان، ص ٧٧.
(٧) نفس المكان، ص ٦٣ـ٦٤.
(٨) نفس المكان، ص ٦٤ـ٦٥.
(٩) نفس المكان، ص ٦٩ـ٧٠.
(١٠) ابن جبير، ص ٢٥٢ـ٢٥٤.
(١١) ابن الشحنة، ص ١٥٦.
(١٢) نفس المكان، ص ١٤٩ـ١٥٠.
(١٣) نفس المكان، ص ١٣٩.
(١٤) نفس المكان، ص ١٣٩.
(١٥) نفس المكان، ص ٢٥٧.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية